مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ر ت م د: 7163- 1112 ر ت م د إ :1892-2588
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2

مناظرة "أبي حاتم السجستاني" و"التّوزي" دراسة حجاجية

An argumentative study of the literary debate between "Abu Hatim Al-Sajistani" and "Al-Tawzi"

يوسف بن أودينة

جامعة غرداية

hazem082012@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2019-04-21 تاريخ القبول:2019-05-21

ملخص

تعد المناظرة فنا أدبيا يستحق الدراسة في العصر الحديث، فهي سبيل قويم لإبداء الرأي ومحاججة الآخر مباشرة دون تعنيف أو إنكار لأفكار الآخرين، فمن خلال المناظرة يُوظِّف كلُّ مناظِر ما عنده من حجج في الموضوع المتناظر حوله ومن تكون له الغلبة في الرأي يسلِّم له الطرف الآخر بأن القول قوله في المسألة محل التناظر.

وتعدُّ مناظرة أبي حاتم السجستاني وعبد الله التّوزي من أرقى المناظرات في النحو العربي حيث استعمل فيها المتناظران حُجَجًا قوية ومدعمة بالدليل الداحض ففي جميع مراحل المناظرة كان كل طرف من طرفي المناظرة يستقبل حجج مناظره بالقبول دون تجريح أو تعنيف ويقوم بردها بالدليل ويبيِّن قصرها

المؤلف المرسل: يوسف بن أودينة hazem082012@gmail.com

عن أداء المعنى المطلوب، إلى أن انتهى الأمر بتسليم التّوزي لأبي حاتم السجستاني واقتناعه بما قدمه السجستاني من حجج.

وقد تحلى المتناظران بأخلاق عالية ولم يجرح أحدهما الآخر طلية أطوار المناظرة فكانت بحق مناظرة راقية احترم طرفاها آداب المناظرة، وكان غرضهما خدمة الموضوع المتناظر حوله.

وسنقوم في دراستنا لهذه المناظرة بإبراز الآليات الحجاجية المستعملة فيها؛ بحسب تدخل كل طرف من طرفيها في مجريات التناظر، وهو ما يسمي في اصطلاح أهل المناظرة بوظائف المتناظرين، والتي تتناوب بين السؤال والجواب، فيسمى السائل مستدلا أو مانعا، ويسمى المجيب معللا أو مدعيا، ثم يتبادل المتناظران الأدوار وهكذا إلى أن ينقطع أحد طرفيها، وهي علامة انتهاء المناظرة.

الكلمات المفتاحية: مناظرة- حجاج- التوزي- أبو حاتم- الفردوس- مآل

Abstract

The literary debate is a fine art worthy to have much more consideration in the modern time. It is an adequate way to express opinions and openly argue with each other without showing offense or deny each other's views. Each arguer uses points of view and arguments relevant to the subject matter. The preeminent view will then be admittedly recognised and approved by the other side. The debate between Abu Hatim al-Sajistani and Abdullah Al-Tawzi is one of the finest debates in the Arabic grammar, wherein the two parties used strong arguments supported by evidence. During the debate stages each one acknowledged the other's arguments without prejudice or demeaning and replied to those arguments showing their lack of performance. Al-Tawzi finally approved what had been said by Abu Hatim Al-Sajistani.

During the debate, the two parties showed high morals and did not

injure each other. It was really a high-class debate respecting ethics and serving the theme of the debated matter

Keywords: Debate - Hajjaj - Altozi - Abu Hatem - Paradise - Mahal

المفاهيم الاصطلاحية:

تعد المناظرة من الفنون الأدبية التي تمثل المحضن الطبيعي للحجاج كونها تَنْبني على الحجة ونقيضها، وتعتمد سيرورتها على أهم التقنيات الحجاجية، وتختلف المناظرات بحسب اختلاف موضوعاتها ومجالاتها؛ وقد عُرف هذا الفن منذ القديم وتطور من مجرد منازعات لفظية إلى أن أصبح مكتمل الأركان.

مفهوم المناظرة:

- 1 لغة:

جاء في كتاب مجمل اللغة: «نَظرتُ، أَنظُر. نَظَرَتِ الأرض إذا رأت العين نباتها، ونظر الدهر إلى بني فلان فأهلكهم، وحيٌّ حِلال ونظر، أي متجاورين ينظر بعضهم بعضا، وداري تنظر إلى دار فلان، ودورنا تناظر أي تقابل والنظّارة قوم ينظرون إلى الشيء، ونظير الشيء مثله، وحكي أبو عبيدة النظر والنظير بمعنى واحد، مثل الند والنديد وأنشد:

ألا هل أتى نِظْرِي مُلَيْكَةَ أنّني أنا الليث مَعْديا عليه وعاديا. 1

ويعرفها الزمخشري بقوله: «وناظرته في أمر كذا إذا نظرَ ونظرْتَ كيف تأتيانه» 1، وهنا نجد الزمخشري يشير صراحة إلى علم المناظرة والبحث لأن المناظرة هي رؤية من الجانبين حول موضوع معين أو مسألة مختلف فيها.

1 أحمد بن فارس، المجمل في اللغة، دراسة وتحقيق، زهير عبد المحسن سلطان، (مؤسسة الرسالة، بيروت1986) ط2، مادة (ن ظ ر)، ص.873.

وقال ابن منظور: «المناظرة أن تناظر أخاك في أمر إذا نظرتُما معا كيف تأتيانه،(...) والتناظر التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك في الأمر وتناظره، وناظره من المناظرة، والنظير المثل، وقيل المِثْل في كل شيء، وفلان نظيرك أي مِثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء، (...) ويقال ناظرت فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة (...)، وإذا قلتَ نظرتُ في الأمر احتمل أن يكون تفكُّرا فيه وتدبُّرا بالقلب. والتناظر التراوض في الأمر، ونظيرك الذي يراوضك وتناظره، والمناظرة المثل والشِّبْه» 2.

- 2 اصطلاحا:

يقول الجرجاني: «[المناظرة] هي النظر بالبصيرة من الجانبين وفي النسبة بين الشيئين إظهارا للصواب» 3. يظهر من خلال هذا التحديد أنّه يتوفر على بعض السمات الاصطلاحية، فالمناظرة بالنسبة إليه يراد بها النظر إلى الشيء من جانبين إظهارا للحق، والتعاون عليه بكل ما من شأنه أن يقود إلى الصواب.

ويرى طاش كبرى زاده أنّ المناظرة في الاصطلاح: «... تعني النظر بالبصيرة لمتباريين يستند كل واحد منهما إلى مذهب مختلف لمزيد الكشف عن الحقيقة» 4. وهذا التعريف يشير إلى أهم عناصر المناظرة من حيث وجود المتباريين والاختلاف في الرأي ومطلب الكشف عن الحقيقة.

أما ابن خلدون فربط المناظرة بالجدل حيث يقول: «وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة (...) فإنه لمّا كان باب المناظرة في الردّ والقبول متسعا وكل

1 جار الله محمود الزمخشري، أساس البلاغة، تح، محمد باسل عيون السود، (دار الكتب العلمية، بيروت –لينان، 1998)، ط1،ج2، مادة (ن ظ ر)، ص.283.

2 أحمد بن منظور، لسان العرب، ج5، مادة (ن ظ ر)، ص.217- 219.

3 الشريف الجرجاني، التعريفات، (مكتبة لبنان، بيروت 1985)، طبعة جديدة، ص.250.

4طاش كبرى زاده، رسالة في آداب البحث والمناظرة، تح، حايف النبهان، (دار الظاهرية للنشر والتوزيع، الكويت 2012)، ط1، ص.26.

واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون حال المستدل والمجيب وحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون مخصوما منقطعا ومحل اعتراضه أو معارضته، وأين يجب عليه السكوت ولخصمه الكلام والاستدلال» 1. ولقد عرج من خلال هذا السياق على آداب المتناظرين وحالهما أثناء التناظر، ومآل المناظرة.

أما عند المحدثين فيعرفها الألمعي بقوله: «هي تردد الكلام بين شخصين يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله وإبطال قول صاحبه، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق» 2، نري أن الألمعي أشار إلى ملمح جدير بالأخذ؛ فهو يُفرق بين المناظرة والجدل حيث ربط المناظرة برغبة كلا الطرفين في إظهار الحق ولو على يد مناظره، بعكس الجدال الذي يسعى كل طرف إلى إظهار رأيه على حساب خصمه، حتى ولو كان ما يذهب إليه غير صواب.

وعرفها مجدي وهبة وكامل المهندس في معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب بقولهما: «هي تبادل الكلام والآراء المتعارضة في موضوع ما، يثير الجدل، مثل الموضوعات السياسية والأدبية، والمناظرة عند العرب نوع من المحاورات التي احتدمت بين النحاة والمناطقة والمتكلمين والفقهاء وأصحاب الملل

1 عبد الرحمن ابن خلدون، مقدمة كتاب العبر، تح، عبد الله درويش، (دار يعرب، دمشق، سورية، 2004)، ط1، ص. 392.

2زاهر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن، (مطابع الفرزدق التجارية، القاهرة، 1400هـ)، ط2، ص.24.

والنحل، حول مسائل عقدية وغير عقدية» 1. والملاحظ في هذا التعريف أنه يشير إلى المجالات والموضوعات التي تصلح أكثر من غيرها للتناظر.

ويعرفها محمد الأمين الشنقيطي بقوله: «وهي [المناظرة] في الاصطلاح، المحاورة في الكلام بين شخصين مختلفين، يقصد كل واحد منهما تصحيح قوله، وإبطال قول الآخر، مع رغبة كل منهما في ظهور الحق، فكأنها بالمعنى الاصطلاحي مشاركتهما في النظر الذي هو الفكر المؤدي إلى علم، أو غلبة ظن ليَظهر الصواب» 2. ويركز الشنقيطي من خلال هذا التعريف على النتيجة النهائية التى تؤول إليها المناظرة والمتمثلة في ظهور الصواب.

وعرفها حسن حبنكة الميداني بقوله: «هي المحاورة بين فريقين حول موضوع لكل منهما وجهة نظرٍ فيه تخالف وجهة نظر الفريق الآخر، فهو يحاول إثبات وجهة نظره وإبطال وجهة نظر خصمه، مع رغبته الصادقة بظهور الحق والاعتراف به لدى ظهوره» 3. ولعل المميز في هذا التعريف أن المناظرة لا تنحصر في فردين بل تتعداهما إلى الجماعة.

ويقف حسين صديق على تعريف آخر - بعد رصده لمناظرات القرون الهجرية الأربعة الأولى- أسماه المفهوم العلمي للمناظرة فيقول: «إن مصطلح مناظرة كان يستخدم في تلك القرون للدلالة على نص صغير أو كبير، يعرض حوارا بين شخصين، وأحيانا أكثر. كل من الاثنين يخالف الآخر في الموضوع المطروح للمناقشة، ويتبنى فرضية تخالف فرضية الخصم، يحاول دعمها

1 مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، (مكتبة لبنان، بيروت، 1984)، ط2 ص.214.

2 محمد الأمين الشنقيطي، آداب البحث والمناظرة، تح، سعود بن عبد العزيز العريفي، (دار علم الفوائد، جدة د.ت)، ج2، ص.139.

3 عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، ضوابط المعرفة، (دار القلم، دمشق، (1993م/1414هـ)، ط4، ص.371.

بالحجج والبراهين، وإدحاض فرضية الآخر وأدلته» [1]، وبعد عرضه لهذا التعريف المأخوذ من مناظرات القدامى نجده يورد تعريفا آخر يقرنه بالخطاب، وهو كما يظهر يحاكى فيه النظريات الحديثة في تحليل الخطاب فيقول: «المناظرة نوع من أنواع الخطاب الاحتجاجي الذي يمكن تعريفه بشكل سريع كما يلي: في هذا الخطاب يتوجه متكلم ما (أ) بالخطاب إلى مستمع (ب) بهدف تغير رأي (ب) في قضية من القضايا، وينتمي هذا الخطاب إلى البيان باعتباره فن الكلام أو فن التعبير عن الفكرة» [2].

ونحلص من خلال ما سبق إلى القول بأن تعريفات المناظرة كثيرا ما تقترن بالجدل، كما أنها وإن اختلفت في صيغها فهي تشترك في الإشارة إلى أهم عناصرها مثل طرفيها وآدابها وغايتها. ويمكن إجمال مختلف الخصائص المفهومية للمناظرة في التحديد الآتي: المناظرة: محاورة فكرية بين طرفين مختلفين تعالج موضوعا محددا، يقوم أحد الطرفين بطرح دعوى أو إشكالية متعلقة بموضوع النقاش؛ يسعى الخصم إلى إبطالها، ويكون ذلك بالحجة والبرهان، وتدور المناظرة بحضور حكم عارف بموضوع الخلاف، وبأسس المناظرة وقواعدها وشروطها وآدابها، وتنتهي المناظرة بسكوت أحد الطرفين حال عجزه أو إفحامه، أو بتدخل الحكَم لحسمها إذا لاحظ تعنّت أحد الطرفين رغم بُطلان دعواه.

مفهوم الحجاج:

يعد مفهوم الحجاج مفهوما واسعا ومتعددا للغاية، وذلك لكثرة التعاريف التي تجاذبته يمنة ويسرة؛ فهناك من يقرنه بالجدل، وهناك من يسميه

---

1 حسين الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، (الشركة العالمية للنشر لونجمان، الجيزة، مصر 2000)، ط1، ص.63.

2 حسين الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، مرجع سابق، ص.186.

فن الخطابة، وهناك من يعبر عنه بالبلاغة الجديدة، إلى غير ذلك من التعاريف المتعددة، ولذلك سنحاول الوقوف عند التعريف اللغوي والاصطلاحي للحجاج عسانا أن نلم بتعريف يكون أقرب للمجال الخطابي والتداولي للغة.

1- 1 الحجاج في اللغة:

جاء في لسان العرب: «حاججته، أحاجه حجاجا ومحاجة، حتى حاججته، أي غلبته بالحجج التي أدليت بها.(...) وحاجه محاجة وحجاجا نازعه الحجة، والحجة الدليل والبرهان»1، فابن منظور جمع بين الحجاج والدليل والبرهان، واعتبرهم شيئا واحدا. وربما يكون ذلك من باب التجوز، وإلا فإن الدليل أوسع من البرهان والحجة، كما أن البرهان يختلف عن الحجاج إذ البرهان عقلي والحجاج خطابي يعتمد على اللغة. وقد نص بن منظور على أن الحجاج هو غلبة الخصم بالحجج الدامغة، وصاحب الدليل والبرهان هو المحاجج.

وقال الأزهري: «الحجة الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وهو رجل مِحجاج أي جدِل... والتحاجج التخاصم... وحجّه يحجّهُ حجّا: غلبه على حجته، وفي الحديث "فحج آدم موسى" أي غلبه بالحجة» 2. وعلى هذا يكون الحجاج النزاع والخصام بواسطة الأدلة والحجج، وجميع وسائل الإقناع، فيكون مرادفا للجدل، إذ حدّ الجدل هو مقابلة الحجة بالحجة.

وعليه فالحجة ما دلّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد. لكن هناك من العلماء من فرق بينهما، فقال أبو هلال العسكري: «الحجة هي الاستقامة في النظر والمُضِي فيه على سَنن مستقيم من ردّ الفرع إلى الأصل، وهي مأخوذة من الحِجة وهي الطريق المستقيم وهذا هو فعل المستدل وليس من

1 أحمد ابن منظور، لسان العرب، ج2 مادة (ح ج ج).

2 محمد بن أحمد الأزهري، تهذيب اللغة، تح، عبد الحليم النجار، مراجعة، محمد علي النجار، (دار المصرية للتأليف والترجمة (د.ت))، ج3، (د.ط)، ص390.

الدلالة في شيء» [1]. ويمكن أن نقول إن الدليل أعم من الحجة، وذلك لأن «الحجة اسم لما يدل على صحة الدعوى، إذن فليس كل دليل حجة، فيكون الدليل أعم من الحجة» [2].

من خلال التعاريف السابقة يمكن أن نخلص إلى أن المعنى اللغوي العام للحجاج يتوزع بين المعاني السياقية التالية: القصد، الطريق المستقيم، غلبة الخصم بالقول، السَنَة، العظم المستدير فوق العين، أو حامي العين من المؤثرات الخارجية، وهي معانٍ جمة تجعل منه لفظاً متعدد الدلالات بامتياز.

1- 2 التعريف الاصطلاحي:

يصعب حصر مفهوم الحجاج، وذلك لكثرة استعمال هذا المصطلح في مجالات متعددة والكل يُعرّفه حسب تخصصه ومن زاويته التي ينظر منها، «إذ نجده متواترا في الأدبيات الفلسفية والمنطقية والبلاغية التقليدية، وفي الدراسات القانونية، والمقاربات اللسانية والنفسانية والخطابية المعاصرة...بل في تعدد الدلالات والاستعمالات التي تتباين تباين كل هذه الأطر النظرية والمجالات المعرفية» [3]، فمن خلال هذا الكلام يتبين لنا مدى تشعب مفهوم الحجاج وتوغله في ميادين شتى يصعب الإلمام بها جميعا، فيأخذ أشكالا لغوية وغير لغوية كالحجاج باعتماد الصورة مثلا. وسنكتفي في بحثنا هذا بدراسة الحجاج في جانبه اللغوي، أي الذي يتجلى في نصوص لغوية.

---

1 ينظر: أبو هلال العسكري، الفروق اللغوية، تح، محمد ابراهيم سليم، (دار العلم والثقافة، القاهرة، (د.ت))، ج1، (د.ط) ص.70.

2 أبو يعلى محمد بن الحسين البغدادي، العدة في أصول الفقه، تح، أحمد بن علي سير المباركي، (العربية السعودية 1993)، ج1، ط3، ص.133.

3 محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، (دار الثقافة الدار البيضاء المغرب 2005)، ط1، ص.6.

يقول التهانوي في كشاف اصطلاح الفنون في تعريفه للحجة ما نصه: «الحجة مرادفة للدليل... والحجة الإلزامية هي المركبة من المقدمات المسلّمة عند الخصم المقصود منها إلزام الخصم وإسكاته وهي شائعة في الكتب. والقول بعدم إفادتها الإلزامَ لعدمِ صدقها في نفس الأمر قول بلا دليل لا يُعبأ به» 1. نلاحظ أن التهانوي يساوي بين الحجة والدليل ويجعلهما مترادفين، كما أنه يجعل من الحجة استدلالا ينطلق من مقدمات مسلَّم بها ليصل إلى نتيجة حتمية يسميها الحجة الإلزامية. والمراد منها إسكات الخصم وإفحامه. ونرى أن التهانوي قد جمع بين الحجة والدليل والاستدلال وهى أشياء مختلفة إذ لكل من الثلاثة مفهومه الخاص، وحدّه الذي يميزه عن غيره.

ويعرفه طه عبد الرحمن بناء على السياق اللغوي والمقامي الذي يرد فيه الحجاج فيقول: «وحد الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية» 2، ثم يشرح ذلك بقوله: «فهو تداولي لأن طابعه الفكري مقامي اجتماعي،... وهو جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة» 3.

ويمكن أن نقول: إن النص الحجاجي جنس خاص من الخطاب، يُبنى على قضية أو فرضية خلافية يعرض فيها المتكلم دعواه، مدعومة بالتبريرات، عبر سلسلة من الأقوال المترابطة ترابطا منطقيا قاصدا إقناع الآخر بصدق دعواه، والتأثير في موقفه، أو سلوكه اتجاه هذه الدعوى.

---

1 التهانوي، كشاف اصطلاح الفنون والعلوم، تح، علي دحروج، (مكتبة لبنان ناشرون بيروت 1996)، ج1، ط1 ص.622.

2 طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000)، ط2 ص.65.

3 ينظر: طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، مرجع سابق، ص.65.

1- موضوع المناظرة:

تعد مناظرة "أبي حاتم" السجستاني (ت250ه) [1] و"التّوزي" (ت238ه) [2] من المناظرات التي جرت بين عالمين في اللغة، في مجلس من مجالس العلماء؛ وهو مجلس الأخفش سعيد بن مسعدة (ت210ه) [3]، وتصبو هذه المناظرة إلى إظهار المعرفة والصواب في مسائل اللغة والنحو، حيت كان موضوعها حول التذكير والتأنيث، وجرى مضمونها حول اللغة وخاصة في معنى كلمة "الفردوس" أمذكر هي أم مؤنث، وقد كانت تبعا لما قام به "أبو حاتم" حيث كان يؤلف كتابا في المذكر والمؤنث، فأراد "التّوزي" أن يفاتشه في موضوع الكتاب؛ فجرت هذه المناظرة، التي امتازت بهدوء طرفيها وتناوبهما في الكلام وتقديم الحجج والأدلة التي تخدم الفكرة المتوخاة من المناظرة، ولم تتشعب إلى مواضيع أخرى، ولم يصاحبها شغب ولا صخب، وتجلت فيها آداب البحث والمناظرة، فكانت آداب

---

1 هو أبو حاتم السجستاني مقرئ ونحوي ولغوي نزيل البصرة وعالمها، عالم باللغة والشعر، أخذ العلم عن الأخفش والأصمعي و عن أبي عبيدة عمر بن المثنى وغيرهم، أخذ عنه علماء عصره كابن دريد والمبرد وابن قتيبة توفي بالبصرة ودفن بها.

2 هو عبد الله محمد بن هارون أصله من بلدة توز في فارس وهو مولى قبيلة قريش واليها ينسب أحيانا كان عالما بالنحو متبحرا في الأدب أخذ العلم عن أبي عبيدة عمر بن المثنى وقرأ كتاب سيبويه على الجرمي، وكان أعلم من الرياشي والمازني توفي ببغداد. ينظر: (الأشباه والنظائر، ج5، ص،48) (بغية الوعاة، ص.290) و(نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص. 135).

3 أبو الحسن سعيد بن مسعدة البلخي ثم البصري يعرف بالأخفش الأوسط، أخذ عن الخليل، ولزم سيبويه، وعنه أخذ المازني، وأبو حاتم، وغيرهم. ينظر سير أعلام النبلاء،(10/207)

المتناظرين وأخلاقهم مجسدة في هذين العالمين، وكان قبول الحق وتقبله الغاية الأولى من المناظرة، فقد جسدت تجسيدا واقعيا لما أُلف في المناظرة من نظريات، فقد كان هدف طرفيها إظهار الحق ومناشدته حتى لو كان من عند الطرف الآخر، وتقبله دون امتراء أو تنكر، وقد قدم كلا المتناظرين حججه التي يدعي أنها صواب.

2- تحليل نص المناظرة حجاجيا

تبدأ المناظرة بسؤال "التّوزي" "لأبي حاتم" بعد أن سأله عن نسبة تقدمه في صناعة كتاب المذكر والمؤنث قائلا: «فما تقول في الفردوس» [1]، "فالتّوزي" ينطق هنا من خلفية جمع "أبي حاتم" لكتاب يحاول فيه تبين المذكر من المؤنث في بعض الأسماء، التي يصعب تفريق العامة بينها؛ أمذكر هي أم مؤنثة، وبذلك يضع "التّوزي" موضوعا للمناظرة بينه وبين "أبي حاتم" حمله مضمون السؤال الذي طرحه، فقد كان السؤال عبارة عن بداية للمناظرة بينهما إذ إن "التّوزي" كان يعتقد أن الفردوس مؤنث، أو أن عنده بعض اللَّبس فيها، أو أنه كان يرجح أن يكون لفظ الفردوس مؤنثا، وهو الأمر الذي قاده إلى الاستفسار عنه دون غيره من الأسماء، فقد كان يخالجه فيه شك؛ وهو الأمر الذي أدّى إلى تسليمه في نهاية المناظرة، فقد قادت حجة التسليم وعدم الوقوف على الرأي الأول الذي كان يعتقده "التّوزي" إلى حجة مفادها أن "التّوزي" لم يكن متأكدا تمام التأكد من تأنيث كلمة الفردوس.

---

1 جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، تح، عبد العال سالم مكرم، (مؤسسة الرسالة، بيروت 1985)، ط1، ص.48.

يقول "أبو حاتم" ردا على سؤال "التّوزي": «الفردوس مذكر» 1، يردّ "أبو حاتم" على سؤال "التّوزي" بإجابة مباشرة دون شرح لأنه كان يظن أن "التّوزي" يسأل سؤال متعلم، لا سؤال مفاتشة وفهم، لذلك ساق جوابه دون أدلة أو مؤكدات، وهو الأمر الذي يدعو إليه المقام التواصلي للخطاب، وكذلك مبدأ التعاون التداولي احتراما لقاعدة كم الخبر، وهو ما تؤكده كذلك الحجج التي أوردها "أبو حاتم" عندما تأكد أن "التّوزي" يسأل سؤال مستفهم، وهذا حين عرض الدليل على أن الفردوس مؤنث، وإلا فإنه كان يسوق الشواهد منذ البداية ليكفى "التّوزي" عناء الاستفهام الثاني.

يقول "التّوزي": فإن الله يقول: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [سورة المؤمنون الآية11]، فنجد أن "التّوزي" قد ردّ قول "أبي حاتم" بحجة جاهزة في أعلى درجات السلم الحجاجي من حيث القوة الاقناعية، حيث استشهد بآية قرآنية ليؤكد غلط "أبي حاتم"؛ ويقوي دليله أن الفردوس مؤنث وليس مذكر، ويعتبر الشاهد من الحجج الجاهزة التي يدعم بها المناظر دعواه فلا يترك مجالا للخصم في دحض قوله، فما بالك والشاهد من القرآن الكريم؛ الذي لا يجد "أبو حاتم" ما يرده به، إلا أن يُبين سوء استعماله من طرف "التّوزي"، وبذلك ينقلب الدليل أو الشاهد الذي لا يحسن صاحبه توظيفه إلى دليل يخدم الدعوى العكسية، أو المضادة.

يقول "أبو حاتم" ردّا على الشاهد الذي استدل به "التّوزي" على تأنيث كلمة الفردوس: « ذهب إلى معنى الجنة فأنثه» 2، فنجد أن "أبا حاتم" قام باستعمال الشاهد الذي قدمه "التّوزي"، وذلك بتوجيهه لصالح دعواه، وهي حجة قلب دليل الخصم لصالح القضية المتبناة، وهو الشيء الذي استعمله "أبو

1 جلال الدين السيوطي،الأشباه والنظائر في النحو، مرجع سابق، ص.48.

2 نفسه، ص.48.

حاتم" وأحسن استغلاله، حيث وجه الآية التي استعملها "التّوزي" لصالح دعواه وبين أن المقصود بقوله تعالى: (الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) والشاهد من الآية هو قوله "فيها" الذي اعتمد عليه "التّوزي" في التأنيث، فلو كان مذكرا لقال "فيه" فذهب "أبو حاتم" إلى أن "فيها" هنا تعود على الجنة في الآية وليس الفردوس، ثم ساق "أبو حاتم" عدة حجج بين فيها أنه قد يذكر المؤنث ويراد به المذكر والعكس، حسب قاعدة ذكر الأعم وإيراد الأخص أو ذكر الأخص وإيراد الأعم.

ومن الحجج التي قدمها "أبو حاتم" كذلك استشهاده بحجة هي في مرتبة الحجة التي قدمها "التّوزي" وهي آية من كتاب الله، حيث يذكر فيها المذكر بصيغة المؤنث لفظا، لكن المعنى كان يقصد إلى شيء آخر، هو في حقيقته مؤنث عاد إليه الضمير، أو علم من سياق الكلام ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: (مَن جاءَ بِالحَسَنَةِ فَلَهُ عَشرُ أَمثالِها) [الأنعام160] والشاهد من الآية لفظة "أمثالها" المؤنثة، وهي في أصلها مذكر، لأن المثل مذكر ولا يختلف حوله اثنان، وبذلك دلّ على أن المولى - عز وجل- كان يقصد أن الحسنات هي التي تتضاعف إلى عشر أمثالها، فذهب إلى معناها ودل عليه بتأنيث أمثالها، مع أن المثل في أصله مذكر.

ثم استشهد "أبو حاتم" بقول العرب، وتأتي هذه الأقوال في الدرجة الأولى من حيث الاستشهاد للغة العربي، فلا يمكن ردها، فاستشهد "أبو حاتم" ببيت لعمرو بن ربيعة، وبيت أخر للنواح من بني كلاب، وقد ذكرا في شعرهما المؤنث للمذكر لفظا، و قصدا معنى المؤنث، الذي يفسره ما بعده أو تدل عليه قرينة في السياق اللغوي.

قال ربيعة:

فكان مجنّى دون من كنت ثلاث شخوص: كاعبان ومعصرُ [1]

أتّقى

فالشاعر أنّث الشخوص، والشخص مذكر، لكنه أراد بذلك معنى النساء، وذلّ عليه قوله بعدها "كاعبان ومعصر"، والكاعب من خصائص النساء.

وقال النواح:

وإن كلابا هذه عشر أبطن وأنت بريءٌ من قبائلها العشر [2]

"فالنواح" أنث البطن؛ والبطن مذكر، لكنه ذهب إلى معنى المؤنث وكان يقصد القبيلة.

فقد استدل "أبو حاتم" على صدق دعواه في أن المولى - عز وجلّ- ذهب إلى معنى الجنة فأنث "فيها" وليس إلى الفردوس، لأنه قد يذكر اللفظ المؤنث للمذكر، ويقصد به غيره، والعكس صحيح، وذلك بإيراده حججا من القرآن وكلام العرب، وهو الأمر الذي جعل "التّوزي" يقف صامتا أمام هذه الحجج التي استعملها "أبو حاتم"، لأنه لم يجد طريقة لنقضها أو ردها، فهي حجج تقع في أعلى السلم الحجاجي من حيث القوة في الاحتجاج، وهو الأمر الذي قاد "التّوزي" إلى الاستشهاد بحجة أخرى لعله يجد ضالته من ورائها.

قال "التّوزي": «يا غافل [يعني أبا حاتم] الناس يقولون نسألك الفردوس الأعلى» [3]، ذهب "التّوزي" إلى تغيير طريقة الاستشهاد على دعواه، فلما أغلق عليه "أبو حاتم" جميع منافذ الاستشهاد بالآية القرآنية التي قدمها لصالح دعواه؛ وفندها بجملة من الحجج القرآنية والشعرية، فلم يكن هناك بدّ من "التّوزي" إلا أن ينوع الحجج التي تقوي دعواه فاستشهد بأقوال الناس وهي حجة

[1] جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو، مرجع سابق، ص.48.

2 نفسه.ص. 48.

3 جلال الدين السيوطي،الأشباه والنظائر في النحو، مرجع سابق، ص.49.

واقعية من تجارب الناس وعاداتهم اليومية، ولها قوة حجية معتبرة فهي كالمثل والحكاية الشعبية، وهي قوله: "الناس يقولون" فقد دلت هذه اللفظة أنه يستقي حجته من الواقع المعيش اليومي للناس، لكن "التّوزي" ربما نسي أو تناسى أن قول الناس هذا دعاء مأثور عن الرسول - صلي الله عليه وسلم- {إذا سألتم الله فأسئلوه الفردوس الأعلى} [1] كذلك قوله لأم حارثة يوم بدر: {يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن إبنك أصاب الفردوس الأعلى} [2] ولو رده إلى مصدره لكان حجة أقوى في الطرح، كما نلاحظ أن استعمال "التّوزي" لمقولة "يا غافل" التي هي حجة في مرتبة السخرية من المناظر، الذي كان يحتج بكلام العرب، ويقحم نفسه في أمور بعيدة عن التلقى البسيط لدي عامة الناس، وهو يغفل عن قولهم في جميع أحوالهم أثناء الدعاء "اللهمّ إنا نسألك الفردوس الأعلى" أنه كان على ثقة من أن "الفردوس" مؤنث، وان الأعلى صفة تستعمل للمؤنث لا المذكر، وأن حجته هذه حجة في أعلى السلم الحجاجي، فيستحيل أن يفندها "أبو حاتم"، وأنها من الأمور المعتادة عند الناس فلن يجرأ "أبو حاتم" على التنكر لهذه الحجة.

قال "أبو حاتم": «يا نائم، هذه حجتي لأن الأعلى من صفات الذكران» [3]، قام "أبو حاتم" من جديد في استغلال أدلة "التّوزي" لصالحه، كما قدم نفس حجة السخرية التي استعملها "التّوزي" الذي وصفه بالغافل، فوصفه "أبو حاتم" بالنائم وقد دل وصف "أبي حاتم" للتّوزي بالنائم إذ إنه يقدم أدلة لصالح دعوى خصمه ولا يدري، فهو كالنائم الذي يهدي ولا يدري ما يقول، أو كالذي يهرف بما لا يعرف.

---

1 نفسه، ص.48.

[2] جلال الدين السيوطي،الأشباه والنظائر في النحو، مرجع سابق ، ص.48.

3 نفسه، ص.49.

ثم يعقب "أبو حاتم" على دليله بقوله: «لأنه أفعل، ولو كان مؤنثا لقال: العليا كما قال: الأكبر والكبرى، والأصغر والصّغرى» [1] يقدم "أبو حاتم" شرحا للمسألة من الناحية الصرفية ليؤكد صحة ما ذهب إليه من أن الفردوس مذكر وليس مؤنثا، لأن الأعلى الذي هو وصف للفردوس مذكر، ولو كان الفردوس مؤنثا لقال السائل: " نسألك الفردوس العليا" ثم يقدم شاهدا آخر ليوضح ذلك للتّوزي، كما قال: "الأكبر والكبرى، والأصغر والصّغرى" فنجد "أبو حاتم" يفصل للأعلى والعليا بنظيريها الكبرى التي هي مؤنث الأكبر، والصغرى التي هي مؤنث الأصغر وكل هذا من أجل أن يقنع "التّوزي" بأن الفردوس من الأسماء المذكرة.

مآل المناظرة.

كانت نهاية المناظرة بين "أبي حاتم" و"التّوزي" بانقطاع هذا الأخير وقد عبر عن ذلك "أبو حاتم" بقوله: «فسكت خجلا» [2] إن سكوت "التّوزي" وعدم رده على حجة "أبي حاتم" الأخيرة يدل دلالة قاطعة على إلزامه بالحجة البينة، والدليل القاطع، في هذه المناظرة، وسكوته يعتبر بمثابة الانقطاع والإلزام، فعدم مواصلته المناظرة، أوتعرض لدعوى المدعي بقول أو فعل يدل على الانقطاع والتسليم لمناظره بالظفر في هذه المناظرة.

إن الحجج التي قدمها "أبو حاتم" كانت أكثر جدية في الموضوع ومتصلة اتصالا مباشرا بالدعوى المطروحة من طرفه، حيث دافع عن اعتقاده وحمل السائل على التسليم له في نهاية المناظرة، إذ إنه كان يعتقد يقين ما يدعو إليه، وبما أنه متخصص في موضوع التذكير والتأنيث ويقوم بتأليف كتاب في

1 نفسه، ص.49.

2 جلال الدين السيوطي، الأشباه والنظائر في النحو العربي، مرجع سابق، ص.49.

الموضوع ذاته، فقد كانت له قدم السبق في الموضوع، والخبرة في تحويل سير المناظرة لصالحه.

بينما رأينا أن حجج "التّوزي" رغم ارتباطها بمرجعيات قوية من حيث الاحتجاج والاستدلال، إلا أن سوء فهمه وتوظيفه لهذه الحجج التي كان يقدمها والتي تصيّدها "أبو حاتم" وبنى عليها أدلته، يعطينا تصورا واضحا على عدم إلمام "التّوزي" بتلك الحجج وقصر نظره في قراءتها وتوجيهها، والتنبؤ بأبعادها التي تحملها، وهو ما أوقعه في الخلط وأدي به إلى التسليم في نهاية المناظرة.

خاتمة:

وفي ختام بحثنا هذا حول الآليات الحجاجية في مناظرة أبي حاتم السجستاني وعبد الله التوزي نخلص إلى النتائج التالية:

تعد المناظرة ميدانا فسيحا لإبداء الرأي وقبول الرأي الآخر فهي تجسد الآليات الحجاجية في أعلى صورها التداولية.

التزام طرفي المناظرة بموضوع المناظرة فلم يحيدا عنه ووظف جميع الحجج التي تخدم الموضوع المتناظر حوله، ولم يتشعبا في ذلك بالانتقال إلى أفكار خارج عن الموضوع وهو الأمر الذي يؤدي إلى تشتت الافكار وهو ما يعكس جدية المناظرة.

انتقل المتناظران من الحجج البسيطة الى الحجج المركبة في نفس الموضوع، وهو الأمر الذي يعكس استخدامهما للسلم الحجاجي الذي ينتقل فيه المتناظر من الحجج البسيطة إلى الحجج المركبة.

تحلى المتناظران بأخلاق المناظرة وآدابها فلم يجرِّح أحدهما الآخر ولم يستعملا ألفاظا غير مهذبة وهو ما ينبئ عن احترامهما لبعضهما.

لاحظنا خلو المناظرة من الحكم الذي يفصل بين المتناظرين، وهذا دليل على عدم مكابرة المتناظرين فلم يلجأ إلى الحكم، وإنما سلّم أحدهما للآخر لمّا علم ان الحق لجانبه.

وفي آخر المطاف لا يسعنا إلا أن نقول إن موضوع المناظرة لا يزال ميدانا خصبا للبحث والدراسة في عديد الجوانب من أجل كشف خبايا هذا الفن الجميل في ثراتنا العربي.

قائمة المصادر والمراجع:

1. ابن خلدون، عبد الرحمن، مقدمة كتاب العبر ، تح، عبد الله درويش، (دار يعرب، دمشق، سورية، 2004)، ط1.
2. الأزهري، محمد بن أحمد، تهذيب اللغة، تح، عبد الحليم النجار، مراجعة، محمد علي النجار، (دار المصرية للتأليف والترجمة (د.ت))، ج3، (د.ط)،
3. البغدادي، أبو يعلى محمد بن الحسين، العدة في أصول الفقه، تح، أحمد بن علي سير المباركي، (العربية السعودية 1993)، ج1، ط3.
4. بن فارس، أحمد، المجمل في اللغة، دراسة وتحقيق، زهير عبد المحسن سلطان، (مؤسسة الرسالة، بيروت1986) ط2،
5. بن منظور، أحمد، لسان العرب، دار صادر بيروت لبنان
6. التهانوي، كشاف اصطلاح الفنون والعلوم، تح، علي دحروج، (مكتبة لبنان ناشرون بيروت 1996)، ط1.
7. الجرجاني، الشريف، التعريفات، (مكتبة لبنان، بيروت 1985)، طبعة جديدة.
8. حسين الصديق، المناظرة في الأدب العربي الإسلامي، (الشركة العالمية للنشر لونجمان، الجيزة، مصر 2000)، ط1.
9. زاهر الألمعي، مناهج الجدل في القرآن، (مطابع الفرزدق التجارية، القاهرة، 1400هـ)، ط2،
10. الزمخشري، جار الله محمود، أساس البلاغة، تح، محمد باسل عيون السود، (دار الكتب العلمية، بيروت –لينان، 1998)، ط1
11. السيوطي، جلال الدين، الأشباه والنظائر في النحو، تح، عبد العال سالم مكرم، (مؤسسة الرسالة، بيروت 1985)، ط1.
12. الشنقيطي، محمد الأمين، آداب البحث والمناظرة، تح، سعود بن عبد العزيز العريفي، (دار علم الفوائد، جدة د.ت).

13. طاش كبرى زاده، رسالة في آداب البحث والمناظرة، تح، حايف النبهان، (دار الظاهرية للنشر والتوزيع، الكويت 2012)، ط1.

14. طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، (المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، 2000)، ط2

15. العسكري، أبو هلال، الفروق اللغوية، تح، محمد ابراهيم سليم، (دار العلم والثقافة، القاهرة، (د.ت))، ج1، (د.ط)

16. مجدي وهبة، كامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، (مكتبة لبنان، بيروت، 1984)، ط2 .

17. محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، (دار الثقافة الدار البيضاء المغرب 2005)، ط1.

18. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة ، ضوابط المعرفة، (دار القلم، دمشق، (1993م/1414هـ)، ط4.